



دراسة الفن القصصي

زوالنون
أيوب

في العراق بقلم الدكتور عمر الطالب

ان المرحلة التي حاولت القصة العراقية الحديثة ان تقوم فيها على أسس ثابتة ، وأركان آمتن ، هي المرحلة التي ظهر فيها ذنون ايوب ، فقد سعى الى انتاج أدب حي ، يجمع انى حاجات الواقع الاجتماعية ، حاجات الفن ومقوماته . فالواقع اننا نشهد في هذه المرحلة ، ولادة آثار فنية ، نسيه الانار المصرية او اللبنانية ، التي صدرت في ذلك العهد ، بفرق واحد ، هو ان الآثار العراقية ، ظهرت انر فترة أقصر من فترات التطور (١) ، لان المرحلة التي سبقت ظهور ايوب كانت مرحلة تحسس وتلمس ، لان في آثار محمود احمد السيد لهجة وعظية وبقريرية أضرت بالناحية الفنية في قصصه . أما انور شاذول الذي حاول ان يسيغ على قصصه طابعا فنيًا اوضح فقد كانت معظم افاصيحه غتة باردة . ويعد ذنون ايوب (٢) اغزر كتاب القصة في العراق ، فقد اصدر في نهاية الحرب العالمية الثالثة رواية الدكتور ابراهيم ونسج مجاميع قصصية .

وقد تأثر ايوب به وأعجب بنشرة الحزب الشيوعي العراقي المسماة بـ « الشرارة » . وانضم ايوب الى الحزب الشيوعي العراقي اثناء الحرب العالمية الثانية واصبح احد اعضاء اللجنة المركزية للحزب الشيوعي . ورمى انى جمع الشيوعيين مع انديمقراطيين في جبهة واحدة مما اوجد التصدع بينه وبين اعضاء الحزب الشيوعي المخالفين له في الرأي .

آمن ايوب بدكتاتورية البروليتاريا ولكنه لم يؤمن ببيروقراطية الحزب او تسلط البرجوازية الصغيرة على الحزب ، ولم يلتزم باوامر الحزب ففصل منه مع اعوانه عندما طلب عقد مؤتمر لحل مشاكل الحزب ولم توافق اللجنة المركزية .

اصدر ايوب نشرة سرية ضد اللجنة المركزية للحزب الشيوعي اسمها « الى الامام » ثم انضم مع رفاقه الذين فصلوا من الحزب الشيوعي لوفوفهم الى جانبه ، الى الحزب الوطني الديمقراطي ، بعد ان اصبح حزبا علنيا . وكان يكتب في الملحق الادبي لجريدة « الاهالي » لسان حال الحزب . ورشحه الحزب ممثلا له عن الموصل مرتين ، الاولى عام ١٩٤٨ ولكنه فشل امام ممثل الحكومة ، والثانية عام ١٩٥٤ .

كتب اليّ في رسالته يقول : « وقد وجدت بعد مدة ليست بالقصيرة ان النظم وحدها لا تشيع العدل اذا كان مطبقها قليسي الوجدان او سيئي الاخلاق ، كما وجدت ان النظم التي تعد عصرية كاشيوعية مثلا ابعد المذاهب عن انحرية التي تعسقتها » .

بدأ ايوب الكتابة عام ١٩٢٩ ، وآول اثر له لم ينشر وهو تقرير رسمي مفصل عن متصرف جائر أعندى على الطلاب وعلى المدرسين لانهم لم ينفذوا اوامره في مدينة الناصرية . وكتب اول قصة بعد زواجه الاول مباشرة وخلافه مع زوجته الاولى حول مفاهيم واعتبارات معينة ، فحدثت قصته ضجة مما جعله ينصرف الى الكتابة للدفاع عن وجهة نظره وتلهجوم على الاعنبارات والتقاليد التي يمتقتها ، والنظم السياسية الجائرة غير المنطقية ، وخصوصا الاحداث الشاذة التي سادت العراق . وآول اثر مطبوع له ترجمة لقصة « المكفول » للكاتب الروسي جيركوف صدرت عام ١٩٣٣ ، واشترك في تحرير عدة مجلات منها : « المجلة » في الموصل و « العصر الحديث » في بغداد . وكتب في الصحف والمجلات العراقية والعربية . وانتاجه غزير ، فقد اخرج الى السوق في عشرين عاما ثلاث عشرة مجموعة قصصية وثلاث روايات وترجم اربع روايات . وضم مقالاته في كتابين يحتويان على مقالات متنوعة في الادب والسياسة والاجتماع .

(١) سهيل ادريس (القصة العراقية الحديثة) ، الآداب ، العدد الثاني عام ١٩٥٣ م .

(٢) ولد ذنون ايوب عام ١٩٠٨ في مدينة الموصل في أسرة برجوازية من أب ناجر هو الحاج ايوب العبد الواحد ، له باع طويل في الحركة الوطنية في العراق ايام العصر العثماني والسيطرة الانكليزية ، وعضو في حزب العهد آنذي قاوم الاتراك ، دعا للوقومية العربية وساهم في انشاء المدرسة الاسلامية الدينية وهي اول مدرسة علمت العلوم للطلبة باللغة العربية . واهم خديجة انعم الله الحجو من عشيرة (الجحيش) ذات نزعة صوفية . اكمل ذنون دراسته الابتدائية في المدرسة الاسلامية في الموصل والدراسة الثانوية في ثانوية الموصل . ودخل دار المعلمين العليا وتخرج منها عام ١٩٢٨ م مدرسا للعلوم انطبيعية والرياضية ، ونقل في خدمة وزارة المعارف مدرسا ثم مديرا في مدرسه متوسطة ثم مساعدا المدير في مدرسة ثانوية فعميدا لمعهد الفنون الجميلة في بغداد فثابا عن الموصل ممثلا عن الجبهة الوطنية التي شكلت عام ١٩٥٤ من احزاب وطنية ثم متقاعدا بعد حل المجلس ومديرا لمطبعة . ورحل الى فيينا ومكث فيها اربع سنوات . وعاد الى العراق بعد ثورة الرابع عشر من نموز وعيّن مديرا للارشاد والتوجيه العام في مديرية الاذاعة والتلفزيون العامة ، وبعد سنة من عمله في الاذاعة فضل شغل منصب ملحق صحفي في الخارج بسبب خلافه مع الشيوعيين الذين كانوا يديرون الامور في العراق اثناء حكم عبد الكريم قاسم .

وقد تزوج ايوب مرتين : المرة الاولى من فتاة منعلمه ، والمرة الثانية من فتاة جاهلة ، وما كان موفقا او سعيدا في زواجه ، وقد صور ذلك في العديد من افاصيحه .

قرأ ايوب لعدد كبير من كتاب انشرق والغرب . وقد غرست كثرة القراءة في نفسه روح العدل والتحمس للحقيقة والصرحة في القول والعمل ، وكره انفاق ، وسرعان ما وجد نفسه يصطدم مع رؤسائه في العمل ومع الهيئات الحكومية والسلطات العليا . ووجد نفسه اخيرا يدرس النظم السياسية ويتحمس لبعضها كالاشتراكية والشيوعية ، وآزر التنظيمات التي ندعو لها واصبح عضوا في حزب الاصلاح اتشعبي ، وكان الشيوعيون يعملون في صفوف هذا الحزب وهو حزب سري ناصر انقلاب بكر صدقي عام ١٩٣٦ م . ووقف ضد ثورة مايس واعتبر حكم رشيد عالي الكيلاني حكما فاشيا . واتصل بايوب يوسف سلمان (فهد) سكرتير الحزب الشيوعي العراقي ،

وموضوعات ايوب منزوعة من البيئة العراقية ، فهو لا يكتب عن الماضي ولا يهتم به لانه متعلق بالواقع بقوة . وبعد عشرين سنة من انقماره في الكتابة لم يغير موضوعاته ولم يطرأ عليه اي تغيير في نزوعه الى الواقع المجرد ، وان حدث شيء من التغيير فذلك قاصر على اسلوبه فقط . فقد صفا وعمق وارتفع عن أسلوب الصحافه الذي شاع في كتاباته الاولى .

نوزعت معظم قصص ايوب بين تضييبي الافطاع اديني والافطاع الزمني . وفضية المرآة التي نادى بها ، كما نادى بالحربة كاملة للانسان وتمرد فيها ايضا على جملة التقاليد والشرائع والموضوعات الاجتماعية . ومع ان ايوب لم يكن عالما اجتماعيا ولا باحثا نفسيا ولا رجلا اقتصاديا ، الا انه ككثير ، كان يعوزه سلاح ضروري ، لكسي يحتفظ بزمانه وفعاليتته الثورية ، ذلك هو سلاح الفهم الصحيح لمنشأ الاوضاع والردائل التي يحاربها ويضع في ازلتها ، والفهم الصحيح لطرق هذه الازالة . ان اتناثر الذي يحتدم صدره بعاطفة الثورة وهو لا يفهم منشأ الردائل التي يثور عليها ، ولا طرق ازلتها ، لجدير بأن يفني نفسه في صراخ الاحتجاج .

فهو في قصة « ساقطة » يصور لنا فتاة لا يمنحها ذكاؤها من السقوط . ولكنها عاهرة من نوع غريب ، فهي تقرأ الادب وتناقش فيه ، ولها فلسفة في الحياة : (اني احترف الحب كما تحترف انت التعليم ويحترف غيرك المتاجرة او الزراعة ، ولعل الفرق بيني وبينكم ، ان اغلبكم يحترف الحرفة التي يريدونها ، اما انا فقد احترفت الحرفة التي سقطت اليها رغم انفي ... على ان ثمة تشابه بين حرفتي وحرف كل الناس ، وهو اني افوم كما يفوم غيري باعمال كثيرة لا تتفق ومبولهم حينما لا يجدون مناصا ، واسمح لي ان اقول بانني لا اسلب الناس كما تسلبونهم ، وربما كنت الوحيدة التي قدم اثر مما اخذ (٣) . وفي هذا القول شطط وشجيع على الفساد والتحلل لا يتفق والرسالة الاجتماعية التي يحملها ايوب .

وقد دفعه برده هذا على التقاليد والشرائع ، ان يقف من ضحايا المجتمع وطردائه ، موفف الذي يعذرهم فيما يجترحون من آثام ، كما في اقصوصته « ساقطة » من مجموعته القصصية الثانية « ضحايا » . ويرى فيهم طائفة من الضعفاء سدت دويهم طرق الفضيلة ، وجرى عليهم القدر بما لا حيلة لهم فيه . وبين ايوب في اكثر من مناسبة ، طبيعة هؤلاء الضحايا ، الذين اندفعوا الى الشر لقسوة ما يحيط بهم من نظم اجتماعية فاسدة .

وتسم معظم قصصه بميسم الفجيعة ، وطبع بطابع المأساة ، ولا يرى ايوب في المجتمع غير هذه الفواجع والمآسي .

كان ايوب في آثاره الاولى يميل الى تلقين آرائه وعرض افكاره وابرازها في قالب تقريرى جاف واثارتها اثاره مباشرة ، وامتلأت لذلك اعماله الاولى بصوته هو لا بصوات ابطال اقصيصه ، وازدحمت بكثرة من الخطب والمواعظ والنصائح وانواع الاستنزادات ، كما شحنت هنا وهناك بتدخلاته واطلالات رأسه لبيين رأيا او يسوق دليلا ، او يرصم نفسه المتوردة ضد التقاليد البالية ، او ليوحي لنا بما يجب ان نؤمن به ، ومع ان تدخله كان يجعله احيانا وسيطا مسليا وباعثا على التشويق والحماسة لما حوى من تمرد وانسانية ، فان تقريراته العديدة وتدخلاته المستمرة تعوق سير الحادثة وتقطع خيوط القصة وتشكل فيها نقیصة فنية .

وبناء القصة عند ايوب في آثاره الاولى ، بناء (الريبورتاج) ، فلا حبكة لقصته ولا تصميم ولا تخطيط بل انسياب دائم في عفوية ، وذهاب وراء مساري جانبية وحوادث هامشية قد يكون لها مساس بهيكل القصة ، وقد لا يكون ، ولكنها تفاصيل لا فضل للكاتب فيها ، الا انه نقلها .

(٣) دنون ايوب .. ضحايا .. ص ١٥ .

واسلوبه اللغوي بسيط بساطة الريبورتاج الصحفي ، ونعشر فيه على بعض الاخطاء اللغوية . وقد دفعه نزوعه نحو مآليد المجتمع الى العناية بالسرد اكثر من عنايته بالحوار . بل ان الحوار لييهت في آثاره الاولى وتقوم مقامه حركة استنزادية . ويبرز في هذه الحركة اهتمام خاص بالشخصية ، شخصية الكاب نفسه ، وشخصيات ابطاله ، وكثيرا ما يحس ذاته بل انه يجعلها بؤرة التجربة ، ولم يكتف بذلك بل ذهب الى تقمص الكثير من شخصياته ، وفي هذه الحقيقة تكمن ميزات مخلوقاته ، انه يخلق نفسه فيها ، يصورها كما تراها عيناه .

ان ايوب كاتب ذاتي ، كما هو كاتب اجتماعي سياسي ، يلتقط موضوعاته مما يحيط به من احداث ، وما يكتنف حياته من تجارب ، ويمكننا ان نتعرف على دقائق حياته الخاصة من خلال اقصيصه . في حياة ايوب لغز كبير يحاول ان يستتر عليه ، حبه لفتاة ايرانية ، تعرف عليها اثناء زيارته لايران ، ثم تزوجها بالتمتع ، وجاء بها الى العراق ، ولكنه سرعان ما ملها ، وفرر الزواج . طلب اليها ان تتركه ولم تفد توسلاتها في ان يبقيا خادمة لزوجه ، وعندما حرمت من عطفه انتحرت .

وقد صور هذه المأساة في اقصوصته « تجرمة والعقاب » من مجموعته الثانية « ضحايا » ويسرد اسباب فشله في زواجه الاول في اقصوصة « زوجة » . وفشله في زواجه الثاني في اقصوصة « التمرد » . ننال كل مجموعه من مجموعات ايوب القصصية ، لونا من الافكار يربط بين مختلف الموضوعات . في مجموعته الاولى « رسل الثقافة » الصادرة عام ١٩٣٦ يصور كمامح الطبقة المثقفة من معلمين ومدرسين وصلتهم بمسدير المدرسة والطلاب ، وصلة ادارة المدرسة ومدرسيها بولاة الامور .

وهو يحدثنا حديث العارف الخبير : في اقصوصة « بسلامة » يعرض صورا عن عيش التلاميذ بمعلميهم ، وصورا من حيل المعلمين امام ولاة الامور . وكذلك في قصص المجموعة الاخرى مثل (الدرجات النهائية ، سيرة وسيرة ، السيد عبيد في لهو) .

وتقدم لنا المجموعة الثانية « ضحايا » الصادرة عام ١٩٣٧ نماذج من هؤلاء الذين يسقطون ضرى التقاليد والايهام التي تطفئ على المجتمع فتنفسه ، فاة نتحدر لان ذوبها يفرضون غنيها الزواج بشيخ مسن ، ولكنها تسلك « طريق الخلاص » . ونلك ايضا فتساء لا يتردد اخوها في قتلها اذ يراها تتحدث الى جار لها « شرف » .

على ان لهجة النقد الاجتماعي تبدو اكثر صهورا في مجموعته الثالثة « صديقي » الصادرة عام ١٩٣٨ ، ونضم بضع صور لابطال ثائرين على التقاليد والقيود الاجتماعية ، فاقصوصة « عندما تصور العاصفة » ، نقدم لنا موظفا برما بقيود وظيفته ومتطلباتها ، حتى اذا صرف عن الخدمة ، وهذا ما كان ينتظره بفارغ صبر ، انخرط في العمل الحر ، ولم يتردد في ان يعمل سائق سيارة ليكسب حياته بتيل وشرف ويعيل بعد ذلك خمسة عاطلين عن العمل ، وفي هذه الاقصوصة حس فكاهي دقيق يجعل لها قيمة خاصة . واما اقصوصتا « النهاية » و « التمرد » فتضمن آراء كاملة في فلسفة الثورة ، وردها على اكاذيب المجتمع .

وفي مجموعته الرابعة « وحي الفن » الصادرة عام ١٩٣٨ ، نلتقي بشخصيات تكاد تكون غريبة ، وهي شخصيات انهبها الفساد وملاها المجتمع المزيف تبرما بالحياة فسعت الى التماس السلوى والهرب من الواقع بالانغمار في دنيا الفن . ونقرأ احدى روائع المؤلف القصصية « حلم على نغم » التي تروي قصة تكون حلم على نفقات مقطوعة ريمسكي كورسكوف « شهرزاد » ، فان حركات هذه الموسيقى تعبر في ذلك الحلم عن مختلف مظاهر الفساد في السياسة الحكومية حتى تبلغ نهاية المقطع بسوعة في غرق باخرة السنبداد ، وهي ذات

مؤزى بعيد .

« وشمرت فجة بان الجو قد تلبد بفيوم الفوضى ، وسمعت مهمة عاصفة التمرد ، وما هي الا هنيهة حتى تحول المجتمع السى كتلة هائلة مرعبة تنذر بالويل والثبور ، وصرخ احسد الحاضرين : مونا للطفا ، فلنحطم صاحب الشخصية البارزة ! وانطلق الجميع كالعاصفة الهوجاء يصحبها بريق يعمي الابصار ورعد يصم الآذان ، حتى اذا اقتربوا من البناية ذات الابراج وقف فسي وجوههم صف متراس من انحرس يصوب نحو صدورهم ألوت الزؤام . وكان صاحب الشخصية العظيمة واقفا قرب النافذة لا يجسر حتى على اخراج رأسه مصفر الوجه يرتجف فرقا ويتصب عرقا باردا » (٤) .
وفي « عظيم » يصور لنا كاتبا يؤمن بمثله العليا ولا ينحدر الى حماة الخيانة رغم المقربات التي تحيط به ، وكأنه يصف نفسه ويتحدث :

« وهو مفرم بالحملة على أنعرف والتقاليد ، ينتقد المقاييس الخلقية الشائنة والعادات المرعبة ، كذلك كان غير ما هو في الضرب على الابواب الحساسة والنفقات المألوفة .
« وكان يطرد شياطين الفواية صارخا : اليكم عني ، فليس هذا طريق المجد » (٥) .

وفي « مؤامرة الاغبياء » يتحدث عن نفسه ايضا على لسان (نوح) بطل الافصوصة الذي أحب سماع القصص منذ صغره ثم هوى المطالعة وأحبها . ولما بدأ حياته العملية وضع هدفه الذي استمده من مثله العليا : الدفاع عن الوطن والقيم التي يؤمن بها رغم فساد المجتمع وكثرة العراقيين .

« علم ان مقياس المرء ما يملكه من حنكة ودهاء ، وان الاخلاق لا مفهوم لها وان الاخلاص يدل على السذاجة والحمق ، والشرف شيء مكره . والصدق معناه الجنون . وخيانة الواجب اول شروط النجاح . والشعوذة رأس مال من يبني التقدم . والخدمة الصحيحة تأتي بأسوأ العواقب . والوطنية اسم بلا مسمى ، والقومية بنساء قصور لبضعة اشخاص فقط ، والشعبية والشعوبية ، والشيوعية تدل على مفهوم واحد ... وحدث تبدل اساسي في نفسيته وطباعه ، فقد انقلب من شخص رضي هادئ الى منمرّد على تلك الاوضاع السيئة التي أصبح امرها غير خاف على العام والخاص » (٦) .
وفي (النبي) هجوم على الدكتاتورية والفاشية وفي (اخيرا) تصوير لموت شاعر فقير وكيف بعث موته الاطمئنان في نفوس الحاقدين والاسم والحسرة في نفوس الشعب وكأنه يصف وفاة الشاعر (الرصافي) .

وفي مجموعته الخامسة (برج بابل) الصادرة عام ١٩٢٩ يهاجم المجتمع العراقي ونظام الحكم فيه الدكتاتورية هجوما عنيفا . يحدنسا في افصوصته (قاعدة البرج) عن (قاسم) الذي بدد ثروته ليحصل على كرسي نيابة . (وعارف) الذي امتن الصحافة لانها اخر ما يستطيع به الاحتيايل لكسب العيش و (الشيخ حسن) الذي ادرك ان السهر في طلب العلم لا يفيد شيئا . ولكن بعد فوات الاوان . وتدور بين الثلاثة احاديث في السياسة والحياة . في مقهى اعتادوا الجلوس فيه يحيط بهم الجواسيس ينقلون اخبارهم الى الحكومة التي تخشى مثل هذه الاحاديث .

(وقد اجتذبت تلك الاحاديث التي تدور حول رجال الحكم جاسوسا ماهرا تشهد له الملفات السرية بانه لم يرجع من جولته وهو حالي الوفاض اي دون ان يكشف مشاغبا او شيوعيا متآمرا واذا

(٤) ذنون ايوب « وحي الفن » ص ٣٠

(٥) المصدر السابق ، ص ١٠

(٦) المصدر السابق ، ص ١٠٠

لم يجد ما يرضيه لفق حادثة من مخيلته وانهم بها من توفعه الصدفة السيئة في طريقه .

ذلك ليقدّم زبائن جددا للسجون ولكي تزداد الحكومة اطمئنانا على سلامتها . وتظالمتا (انتقام) بمقارب الحسد تنهش قلب (حامد) لان صديقه (اسماعيل) اصدر كتابا يدعو الى اصلاح اللغة وتيسيرها . واعتمد ايوب على التحليل في تصوير شخصية حامد .

(حتى اذا ما قلب الصفحة الاخيرة منه باصابعه المرتجفة . احدث الورق حفيقا ، كان وقعه في نفسه كوقع فحيح ثعبان مهلك . وما كاد ينتهي من قراءة الكلمة الاخيرة حتى قذف بالكتاب الى نهاية الغرفة ، قرب حذائه ، وانكش على الديوان ، وغمض عينيه قليلا كمن يبعث شيئا مرعبا او يستريح من عمل متعب لقد ألم حامد ان ينتج اسماعيل وتدعي سيرته في الافاق . ان بلابل حامد لم يقر لها قرار حتى ينطق الى مجلس (سيف الدين) اسناذ اللغة الكبير حيث يجتمع ادباء البلد وعلماءه - ويجر الحديث عن الكتاب جراً - فسمع من المثالب في شخص اسماعيل وكتابه ما اثلج صدره . فبارح ندى القوم وهو شاعر . ان ثقلا قد ازيج عن صدره) (٧) .

والذي افسد الافصوصة كثرة العظات وضرب الامثال . (ان الصلاة تنهي عن الفحشاء والمنكر) ولا يفتب بعضكم بعضا . ايحب احدكم ان يأكل لحم اخيه ميتا فكرهتموه) . كما ان التحليل جاء سطحيًا ومحدودا .

وفي (عاصفة وصداهها) يصور نوازع نفس تصافرت عليها عوامل الفساد . فقد عمل (توما) في صفوف الحزب واخلص له وكانت جريدته لسان حال الحزب ، وعندما تسلم الحزب الوزارة ارسل اليه رئيس الوزراء ليعتذر له عن عدم امكن اعطائه كرسي الوزارة لانه مسيحي . حز الالم في نفسه وضعف ايمانه بالمبدأ . واخذ يتقلب بين المبادئ يساند الاقوى ، ويساعد افراد طائفته . ويتآمر مع المتآمرين على قلب نظام الحكم . وكان توما متدينا كثيرا ما يتلو اعتراضه امام صورة المسيح ، ويحدث ان يسقط جدار ويصيب رأس ابنه . يعتقد ان ذلك عقاب رباني . وما ان يشفى ابنه حتى يعيد توما سيرته الاولى !

لقد وفق المؤلف في تصوير شخصية توما ، واجاد في تحليل الدوافع التي تضطر الانسان في الجو الخائق ان يغير نظرته للحياة . وجاء اسلوبه مؤثرا خاليا من الوعظ والارشاد . اما (زينة الحياة الدنيا) فهي حوار بين صديقين : مدرس وموظف في وزارة المالية . يعبران فيه عن برهما بالحياة واحساسهما بسخفها ومللها وينتقدان السياسة العامة للحكومة . ويستأثر ايوب في مجموعته السادسة (الكادحون) الصادرة عام ١٩٢٩ ببطيفة العمال والفلاحين وهو يختارهم جميعا من الريف او من سكان شواطئ النهر كساحب المراكب الذي يعصى على اشد الاخطار ويقهرها ليموت اخر الامر اتفه ميتة (النوخده) (ربما كانت هذه هي المرة الاولى التي ركب بها (يعور) سفينة لم يسحبها . لقد رأينته في اليوم الثاني في تابوت مصنوع من سعف النخيل . ممدودا بجانب زوجته واحد اولاده . وقد تشبث بعضهم ببعض وعليهم اسمالهم البالية التي غسلتها الحياة فظهرت اكثر نضاعة وبياضا . وقد تكرم عليهم السدنة وعلى غيرهم من الغرفي الذين قذفت الامواج بجثثهم الى الشاطئ بالطواف حول ضريح (الامام زيد) ليشتموا زيارتهم وهم محمولون على الاعواد .

لقد رأيت بعيني السدنة يتشاجرون اثناء اقتسام هؤلاء الزوار لسلبهم ما يحملون وقد يمسون بالزائر لشدة جشعهم فيسحبونه سحباً الى مزاراتهم ويختطفونه اختطافاً) (٨)
ونجد في (الثائر) ان (وحيدا) يعيش على صيد السمك . يهجم (بقالته) على جيش الانكليز ويقفل الافاعيل ثم يقتله ابن عمه

(٧) (برج بابل) ص ٢٧ .

(٨) ذنون ايوب (الكادحون) ص ٢٦ ، ص ٢٤ .

(برشاشته) وسبب ذلك ان القبيلة اعلنت عصيانها على الحكومة لان شيخها لم يفر بكرسي النياحة ، ويدافع وحيد عن شيخه بينما يدافع ابن عمه الجندي عن الحكومة .

(وكان منظر المقاتلين غريبا حقا . قسم يدافع عن شيخه وقسم يدافع عن ملكه وحكومته وكلهم من قبيلة واحدة ولا اظن انه قد خطر في بال احد من الجنود او من الثوار ان سبب تلك المجزرة كان كرسيها في مجلس النواب) .

وفي (عالم المعيدي) يطرق ايوب اسلوبا جديدا في الكتابة متأثرا بكتاب غربي (انشاء الشيطان اسمه) وتصور القصة عاملا زراعيا اتاه (عزرائيل) بعد اكله دسمة من سمك متفسخ . اخذه الى الاخرة وسار به على الصراف ومثل امام الله لمحاكمته وفاض بالجنة بعد دفاع مستميت :

(اجل ايها الاله لم اتعلم القراءة والكتابة والقرآن واين هو الوقت الذي اتعلم به كل هذا . واين الثمن الذي ادفعه لمن يعلمني ذلك اجل لقد سرقت ولم افعل غير ما يفعله كل اترابي من الاطفال . ولم يخبرنا احد بان هذا العمل سبة او معصية وانه يسمى سرقة محرمة لقد كنا نسويه شطارة ومهارة وكان يدفعنا اليه الحرمان والجوع وهذه الصلاة التي لم اقم بها من ترى كان يعلمنيها (المؤمن) يقرأ التزمية ساعة واحدة لقاء مبلغ من المال يعجز عن تقديمه عشرة فلاحين اذا اجتمعوا معا وقرروا الصيام شهرا كاملا ، ايها الرب القدير انت تعلم كيف ياملنا الراكلة وملاك الارض . . انهم يطلبون منا ان نعمل ليل نهار ولكنهم يجلدوننا بالسياط ويميتوننا في السجون لو طالبنا بابطال حقوقنا . اننا نزرع الحنطة والرز ولكننا ناكل خبز الذرة الممزوج بالتراب والرماد فهل بعد اخذنا بضعة حفنات من الحنطة والرز جريمة او خطيئة ؟ لقد قتلت الحمام لاني كنت اطلب منه ان يعمل ولكني في الحقيقة كنت اسأوه بنفسي وها انذا قد قتلت نفسي في سبيل العمل . .

كل ذلك بمشيئتك فاين عدلك ؟ لقد خلقتني وقررت لي هذا المصير فانت الاول والاخير ولا اعلم ماذا جنيت حتى استحق هذا العذاب الابدي في الدنيا والاخرة (٩) ونقلنا مجموعة (العقل في محنته) الصادرة عام ١٩٤٠ باسلوبها الرمزي الى عالم غريب لم يعودنا ذنون ايوب اياه ومن اليسير ان ندرك السبب الذي من اجله اثر المؤلف هذا الاسلوب لانتقاد العهد القائم في تلك الفترة من الحرب الاخيرة ، فهو يرد اساطير وحكايات تدل على عبث العيش في بلاد بعيدة ففي هذه الاقاصيص يخضع العمل دائما للتقاليد السخيفة والاحكام المسبقة الشائنة ولكن هناك دائما رجلا شادا يصارع ويكافح غير انه ينتهي بالاخفاق لان مفهومه يختلف عن مفاهيم الناس جميعا وهكذا ينتصر الفساد اخر الامر . ومثال ذلك قصة (مصرع العقل) وتدور احداثها في الهند وكتبها الكاتب في اسلوب الحكاية . يسمع (الراجا) نصائح الانكليز بتبعك (كالا صاحب) وزير الثقافة والتعليم والصحافة وكالا صاحب مصاب بالصرع وبالشذوذ فيعمل بطريقة الخاصة للقضاء على كل عمل فكري ، وينهار المفكرون المتخاذلون وترتعد فرائضهم ومن هنا تبدأ محنة العقل . وتشابه هذه القصة قصته (غريب في القطيع) وقد اختار بها الهنود الحمر اطارا . ومثل ذلك اقاصيص المجموعة الاخرى (رقص المقابر ، شيوعي في اللابو) و (مساومة) التي تدور احداثها بين ملك يحاول شراء شاعر ولكن الشاعر يفضل السجن على ان يكون بوقا للملك الطاغية فهو يخاطب ملكه قائلا (ما انت الا سجين الكرسي فقد اخترت لنفسك اصغر السجن ضيقا لا يسع سواك ولا يشاركك فيه من يستمتع لبلواك (١٠) .

ويبين فيها فلسفته في الحياة وازدراعه للتقاليد والعادات (السجن : اختي زنت يا سيدي فقتلناها لان تقاليد عشيرتنا تامر بذلك) .

الشاعر - انت ضحية بانسة كان على القانون ان يسجن العشيبة كلها ويطلق سراحك (١١) بقول ايوب في مقدمة مجموعته الثامنة (حميات) الصادرة عام ١٩٤١ :

(ان مثل من يتوهم ان الامراض الخلقية والنفسية اقل فتكا بالبشر من الامراض الجسمية كمثل رجل اطرش اعمى وسط غرفة مسدودة النوافذ مغلقة الابواب وقد حالت جدرانها بينه وبين عالم تكتسحه عواصف هوج وزوابع مدمرة . ليت شعري كيف يسوغ له العقل والمنطق ان يحسب وافدات الملاريا والكوليرا خطرا لا خطر بعده وهو يرى سيول الدماء الجارية ويسمع باذنيه هدير المدافع المهلكة ويشاهد الالوف والملايين من بني البشر اصحاء اقوياء يدخلون ابواب الفناء زمرا كل ذلك بسبب توبة جشع قد اصابت مجتمعا من المجتمعات او وافدة غرور انتابت عددا من الناس (١٢) .

وكان ايوب يريد ان يشعر القارئ بانه لم ينحرف عن خطته التي سلكها من قبل . واقاصيص هذه المجموعة ضعيفة لم يوفق فيها الكاتب وكانها كتبت على عجل .

ومجموعته القصصية التاسعة (الكارثة الشاملة) الصادرة عام ١٩٤٤ هي اخر مجموعة قصصية صدرت لايوب قبل انتهاء الحرب الثانية . وقد صور فيها مآسي الحرب وويلاتها . اهداها الى الاباطال الميامين الذين يقدمون ارواحهم بكرم وسخاء للقضاء على اخطر ما ابتكرته الرجعية من الشرور والانام . الى المحاربين في مختلف الجبهات ضد قوى الطغيان (١٢) . يقول في (حمى الحرب) : تنبأ علماء الاجتماع بالحروب العالمية العامة نتيجة دراسة الازواضع الاقتصادية الفلقة المرتبطة بنظم سياسية واجتماعية اشد قلقا فيلتحم بعضهم ببعض في صراع هائل جهني يضمفهم وبنه عبيدهم الى الانتفاض عليهم للتخلص منهم فيرفع العبيد السلاح الذي اعطوه لذبح رفاقهم من العبيد في امم اخرى في وجه غاصبي حريتهم فتحمي الفوارق بين السيد والسود وينفي التناحر ليحل محله التعاون) . (١٤) يصور لنا في (بسوق الحرب) المجاعة التي حلت بالوصل في نهاية الحرب العالمية الاولى وكيف كان الموت يحصد الارواح . ورائحة الاجساد تخنق الجو وفي (العبء العظيم) حوار بين (رجب) المؤمن بفلسفة معينة (و حامد) العامل المتذمر من ظروف عمله .

(اذن فالعرب وشكواك قضيتان تمثلان حجري عثرة في سبيل تكامل الحضارة فعلى المجتمع البشري ان يزيل هذين الحجرين فتند تجهم غلاة المحكرين والرجعيين في معسكر وتجمهر المعتدلون وطلبة التقدميين في معسكر اخر . . فانت ان شكوت من اضطهاد فاعلم انك تشكو من ذبول بقايا النظام الذي شنت الحرب لتأييده . واذا بقيت فانما تتعب في سبيل قضيتك الخاصة وقضية جميع الشعوب (١٥) يهب الكاتب شخوصه بعض لمحات قشرتها الخارجية دون ان يتعمق فيها او يحلل عواطفها او نفسياتها ، ولم تكن للشخصية خصائص فردية تميزها عن غيرها ، بل هي مواقف عامة وانماط بشرية عديدة لافراد الشعب . ولم يصور قلق الشخصية وتناقضاتها وصراعها العنيف ، وانما يعرضها لواقف متضاربة واجملة من المفارقات المتكاملة ، يرجح

(١١) المصدر السابق ص ٥١ .

(١٢) ذنون ايوب (حميات) ص ١ .

(١٣) ذنون ايوب (الكارثة الشاملة) ص ١ .

(١٤) المصدر السابق . ص ١ .

(١٥) المصدر السابق .

(٩) المصدر السابق ص ٨٢ - ٨٤ .

(١٠) العقل في محنته ص ٤٩ .

فيها تليق احد المواقف التي تفهها الشخصية . او يجعلها تنهزم من الحياة عموماً . وتبدو هذه الخاصة التي تتسم بطابع المأساة في شخصياته النسائية . وشخص ايووب دمي خلقها الكاتب لتحقيق هدف معين او فكرة معينة ، نظرتهم الى الحياة خاصة بهم هي النظرة التي يرى فيها الكاتب الحياة . بعضهم يميل الى العزلة والانزواء ، واخرون يعيشون في بؤرة الحياة ، يكافحون من اجل وجودهم ، وهم محبوبون لانهم صريحون لا يخافون في الحق لومة لائم . والقسم الاخر من عالم ايووب ينحصر في فريق رجال السياسة ، يحصي عليهم تصرفاتهم ويسجل مثالبهم ، ويتعمق احياناً في سبر نفوسهم لكشف عنصر الشر فيهم والتي تطبع اعمالهم بطابع الانانية والخداع واغفال المصلحة العامة التي فرض عليهم ان يسهروا عليها .

وينجح الكاتب في اثارة القارئ وملء صدره حقداً عليهم . كما ينجح في اثارة الرءاء . المشوب بالازدراء لشخص اخرى تجري في اعقاب اولئك الساسة تكرر ما اصاب من مفاهيم بعد الدرس والتحصيل العالي وتجاهل المثل الاخلاقية العليا . بينما يخلع على الابطال الذين يحبهم صفات تقربهم من القلوب وتحيطهم بهالة من الاعجاب والاحترام وان بدوا احياناً غربي الاطوار لا يستطيعون التلاؤم مع الحياة (١٦) .

يستمد ايووب واقعيته في كتابة اقايصه من تجاربه الشخصية وعن الاحداث التي يراها . ان الخيال لا يلعب عنده الا دوراً محدوداً ويدين بجمال قصصه الى عينه اللطيفة لا الى وثبة خياله . يؤمن ايووب بالادب الهادف وبان القصة لا تكتب ولا تقرأ لذاتها ولكن لظهار عيوب المجتمع ونقده . فلا بد ان تكون ملتصقة به ، والالوان المحلية التي تظهر في قصصه انما هي الجسر الذي يضمنه بين الواقع الذي يكره والمستقبل الذي يرجو . وهو متفائل ويعتقد في قرارته ان النضال لا بد ان يثمر وان الإنسانية لا بد ان تنتصر . واثاره تنقد السياسة العامة للعراق وتستهنج التكاليد البالية التي تجر المجتمع الى الورد . ونستطيع القول ان ذنون ايووب رائد الواقعية الجديدة في العراق ، التي تطورت بعد الحرب الثانية واكتسحت الاتجاهات الاخرى في القصة العراقية القصيرة ، ونلمس ذلك في عدد غير قليل من اقايصه التي نشرها بعد الحرب (١٧) اذ يتلمس شخصياته من الطبقات التي تقف وجهاً لوجه امام الحياة في كفاحها اليومي المرير في سبيل البقاء ، وتتميز بطابع محلي يتمثل في عرض الصور الواقعية الشعبية فيما يكسب بعضها صفة انسانية عميقة الدلالة لامتيازها بالصدق والاخلاص للواقع وعدم الجنوح الى التجريد وخلق النماذج المتخيلة . وربطه بين الادب والوطن وابرز الخصائص الجوهرية لهذا الوطن وللناس الذين يعيشون فيه . واقايصه ترتبط بالارض العراقية ارتباطاً وثيقاً وتعالج الواقع وتحدث عن العراقيين ، في حدود العراق وفي العصر الحاضر ، وتؤمن اقايصه بان الانسان كان كريم ينزع دائماً الى حياة حرة سعيدة يعمل من اجلها وله القدرة على باوغ ما يريد رغم العقبات التي يضعها المستفلون والحكام من ورائهم لعرقلة مسيرة الانسان نحو هدفه ، عن طريق قوانين تسنها الحكومة لخدمة الطبقة المستفلة المرتبطة بالاستعمار كل الارتباط (١٨) .

لغة الكاتب معبرة بصورة عامة وان كانت لا ترتفع الا قليلاً عن الاسلوب الصحفي البسيط . ولا يخلو أسلوبه من اخطاء لغوية ونحوية واملائية ، ومرد ذلك عن سرعته في النشر . وقد يستخدم ايووب عبارات كلاسية يقتبسها من قراءاته المتعددة وحافظته من الشعر العربي القديم او النثر ، مثل (دقوا بينهم عطر

(١٦) انظر : فكرالله ، ثورة العبيد ، فتاة الجسر ، صيد البشر ،

الرمس للعالم .

(١٧) الخصم والحكم ، الكابوس

(١٨) انظر عبد القادر حسن امين (القصص) .

مشتم) و (اجتمعت القبيلة امرها عشاء فلما اصبحوا اصبحت لهم ضوضاء) . ويستخدم احياناً كلمات غريبة عن افهام القارئ العادي مثل : سهوة واقعاء والوصيد والمشير .

وقد تغير أسلوب ايووب وازداد اشراقاً وجمالاً في مجاميعه الاخيرة : قلوب ظمأى ، وصور شتى ، وقصص من فيينا . كما تشيع السخرية في أسلوبه ، يستعين بها للنيل ممن يضعه هدفاً لنقده . وقد يسف احياناً في نقده بذكر نصوص مختلفة (هو الدكتور العظيم) (هذا الشيخ الخرف) .

وقد يعمد الى السجع ساخراً متندراً كقوله : (والسيد افضل موظف في ديوان ، ته خادم وته اعوان ، وله عقل يتسم بالرجحان . حتى اصبح يشار له بالبنان . من ذوي الكلمة عند الاقران (١٩) . ولكن اشد السخرية واكثرها ابلاماً تلك الصور الفارقة التي يوفق الكاتب في رسمها احياناً كقوله (وسهر الليالي مكبا على الكتب الصفراء حتى شحب وجهه وكل بصره وضعت بنيته فاصبح يشبه بقامته النحيفة ووجهه الصقير وعمامته البيضاء وملابسه العصرية تحت الحجة السوداء فلما من الرصاص في رأسه ممحاة) (٢٠) . وفي هذه الروح الساخرة تكمن المأساة ، فسخريته نابعة من الالتم الذي يعيشه الشعب العراقي مقيداً بقيود اجتماعية وسياسية تقيسه (٢١) .

واستعمل الكاتب في مجموعته (صور شتى) الامثلة العلمية وكانه مدرس في فصل ، ولا بد ان لاتجاهه تأثيراً كبيراً في ذلك ، كقوله (عناصر الحياة في الحجيرة ثمانية فنية نشيطة قوية بعضها مسوجب وبعضها سالب) و (في زاوية من شريان صغير يتفرع من شريان المدينة الاكبر) (٢٢) .

وقد كان ذنون ايووب من الكتاب الذين وضعوا الرواية الواقعية في العراق على الصراط الفني الصحيح ، وقد اعطاها شكلها الذي يجب ان تتخذه كنوع ادبي ، وكان قد تمثل بعق روح التجربة . فاستطاع بتمكنه من عناصر الخلق الفني ان يفرغ التجربة في قالب الفني ، فجاءت الرواية لديه متحررة من جميع ماضيها القديم في العراق .

وقد اصدر ايووب ست مجموعات قصصية قبل ان يصدر روايته الاولى (الدكتور ابراهيم) عام ١٩٣٩ ، ثم روايته الثانية (اليد والارض والماء) عام ١٩٤٨ ، فروايته الثالثة (الرسائل المنسية) عام ١٩٥٧ ، بالاضافة الى اثنتي عشرة مجموعة قصصية . وقصص ايووب تعكس ذلك الفلق الفني الذي انتشى منه المثقفون بين سنتي ١٩٢٠ - ١٩٤٠ ، وهو لا يقدم فلسفة معينة في قصصه ولكنه يشعر بان الحقيقة لا توجد الا في الواقعية وان الواقعية هي التعبير عن الديمقراطية . وكان يحاول دوماً ان يعطي الحدث القصصي قوامه الارضي الانساني ، ومن هذا الموقف ينبع مبدأ الالتزام في ادبه ، وبه يدخل ميدان العركة وميدان النضال الاجتماعي والانساني ، فيجمل لا للكتابة نفسها وانما يجعل من الكتابة وسيلة لفاية اخرى صريحة ينحاز تجاهها في هذا العالم الذي يقسمه الى طبقتين (ايدولوجيتين) متنافستين (ايدولوجية الرأسمالية والايديولوجية البروليتارية) وهو ينحاز الى جانب الاثرية مقابل الاقلية ، فيدلف اكواخ الناس وينطلق الى الحقول حيث العاملون من غير ملل . ولناخذ على سبيل المثال ما يقوله (ماجد) احد ابطال روايته (اليد والارض والماء) : (ان الربح قد اصبح في نظري امراً ثانياً . لقد وجدت الآن معنى من

(١٩) عظمة فارغة ، ص ٢٩

(٢٠) برج بابل ، ص ١٦

(٢١) انظر عبد القادر حسن امين (القصص)

(٢٢) صور شتى ، ص ٣٥

معاني السعادة التي ينشدها الانسان في كثير من الاحيان فلا يجدها ، لقد وجدتها في بريق عيون هؤلاء الفلاحين . اننا قد انشأنا عملا مفيدا لمئات من الناس ووزعنا قسوتنا للالوف وأحيينا ارضا ميسرة (٢٣) .

كل ذلك ليكون الادب سلاحا يقود به عن حق الضعفاء ويستمد منه ايمانا بانسانيته وعزيمة في كفاحه الدائب في سبيل حياة حرة لا يستعبد فيها القوي الضعيف ولا يأكل الانسان لحم اخيه الانسان . لان الواقعية حين ترى في الادب فنا له رسالته الاجتماعية ترى له دورا خطيرا في تنظيم المجتمع ، يؤثر في تطوره الانساني ، وذلك يعني ان على الكتاب مسؤولية اجتماعية وطنية انسانية فتتعرض الاخلاق والصدق في العمل الادبي (فاذا كانت الدولة لا تحمي رعاياها فعلى الرعايا ان يحموا انفسهم بانفسهم) (٢٤) . هذا ما يردده ماجد بطل « اليد والارض والماء » .

وشعر انه سيكون على جيل القصاصين ان يبدأوا من جديد بنظرة متحررة الى العالم حولهم . وتستمد هذه الواقعية عناصرها من انه يصدر فيها عن تجاربه الشخصية وعن الصور والاحداث التي يراها . فسيرة « الدكتور ابراهيم » سيرة شخصية معروفة في العراق في تلك الفترة حيث يقول الدكتور ابراهيم للمؤلف الذي يروي القصة : (وبرهنت للناس على ان الدكتور ابراهيم هو الدكتور الجمالي وليس انا) (٢٥) . ويقول في مقبمة « اليد والارض والماء » : (ان شككت في صحة هذه الرواية .. اقول عليك باضبارات الدولة واوراقها ، وستجد اذا ما سمحت لك الدولة بالكشف في عورتها ان الحقيقة اغرب من الخيال (٢٦) . ويعترف في بداية « الرسائل المنسية » انه سرق رسائل صديق (عارف) : (بل صهمت على ان اسرقها ايضا فلا ابذل من الجهد اكثر من ان ارتبها دون زبادة او نقصان (٢٧) . وكان الاجدر بالكتاب ألا يضم في روايته صورة منقولة عن المجتمع العراقي بل صورة انسانية تعين القارئ على فهم هذه الحقائق التي تشتمل عليها هذه الروايات ، ولكنها امتنازت بالصدق وفقدت كثيرا من الحياة والتأثير وعلى الاخص روايته الاولى « الدكتور ابراهيم » ، فقد رأى الوصولييين المهرة يشقون طريقهم الى السلطات بواسطة الخداع والمكر والمال وذلك بسحق من هم اقل منهم مهارة في الخداع والقضاء عليهم . لقد رأى طبقات جديدة محدثة النعمة تنشأ على اساس الاستحواذ على الاملاك ، وبالاختصار لقد رأى جميع العوامل الدنيئة والتي تعافها النفس صادرة عن هذا المحك السحري الجديد للنجاح اعني النقود ومن هذا الواقع استمد المؤلف شخصية الدكتور ابراهيم .

يؤمن ايوب بالادب الهادف وبان الرواية لا تكتب ولا تقسرا لذاتها ، ولكن لاصلاح المجتمع - كما سبق ان بينا - ولذلك يرى ضرورة اتصالها به . وهذه الالوان المحلية التي تظهر في روايته هي الجسر الذي نصفه بين الواقع الذي يكون والمستقبل الاشتراكي الذي يرجو .

ويقول في مقدمة روايته « اليد والارض والماء » : « منذ بضعة سنين يوم كانت الحرية الفكرية مغلولة بالف قيد (...) وجدت نفسي في تلك الفترة في حالة حرج شديد قريب من اليأس ، فقد ضقت بقيود السياسة البلهاء وقبود المجتمع البليد المتزمت وقبود المتعصبين في السياسة ، ذلك التعصب الذي دونه التعصب الديني

(٢٣) ذنون ايوب « اليد والارض والماء » ص ٤٥

(٢٤) المصدر السابق ، ص ٥ .

(٢٥) ذنون ايوب (الدكتور ابراهيم) ص ٢٥ « اليد والارض

والماء » ، الاهداء .

(٢٦ و ٢٧) ايوب ، الرسائل ، ص ٩

الاعمى ، فوطنت نفسي على الهرب من هذا البلد والتشرد في ارجاء العالم (٢٨) .

ويعتقد ايوب في قرارته ان النضال لا بد ان يثمر وان الانسانية لا بد ان تنتصر ، وهو ما يفتأ يردد على لسان ابطله في رواياته ما برده (عارف) : (ائتت جاهلة مبلغ تمردى على المجتمع الجاهل وقوانينه الوضعية البلهاء ، على عرفه الجامد البليد ، على فضائله التي يقدسها والتي لا ارى فيها الا اردل الرذائل ، فلو اردت ان يهجي احد الناس اذع الهجاء فما عليك الا ان تصفه بانه رجل يحترمه الناس لانه فاضل في نظرهم ، يراعي العرف والتقاليد ولا يشذ عنها فيد شعرة) (٢٩) . وما تقوله سنية : (ولو تقدمت الزراعة العصرية لارتقى الفلاح حتما ودخل دورا جديدا لا اثر فيه لتكلم العادات والتقاليد البالية) (٣٠) . وقد داب على تقديمه للجماهير البدائية المتراخمة ودفعا الى مكافحة الفردية . والفردية عنده معناها الانفصال من الجماعات المتراسة والعزلة والتنازع لا بين الافراد والجماعة فصحب بل بين الافراد انفسهم ، ويصوب كل منهم الى القوة والى الامتلاك والى اثبات وجوده بالوسائل العدوانية كما فعل كل من (الدكتور ابراهيم) ووالده الشيخ اسماعيل في رواية (الدكتور ابراهيم) والاقطاعيين رؤساء البيئات الادارية في « اليد والارض والماء » و (عارف) في « الرسائل المنسية » .

ونستطيع القول ان ايوب رائد الواقعية الجديدة في العراق التي تطورت بعد الحرب الثانية وامتسحت الاتجاهات الاخرى في القصة العراقية ، وفي الاخص القصة القصيرة ، لانه يتلمس شخصياته التي تقف وجها لوجه امام الحياة في كفاحها اليومي المرير في سبيل البقاء وتتميز بطابع محلي يتمثل في عرض الصور الواقعية الشعبية مما يكسب بعضها صفة انسانية عميقة الدلالة لامتيازها بالصدق والاخلاص للواقع وربطه بين الادب والوطن وابرار الخصائص الجوهرية لهذا السوطن والناس الذين يعيشون فيه . وترتبط قصصه بالارض العراقية ارتباطا وثيقا وتعالج الواقع وتحدث عن العراقيين البسطاء في حدود العراق وفي العصر الحاضر ، وتؤمن قصصه بان الانسان كائن كريم ينزع دائما الى حياة حرة سعيدة يعمل من اجلها وله القدرة على بلوغ ما يريد رغم العقبات التي يضعها المستغلون والحكام من ورائهم لعرقلة مسيرة الانسان نحو هدفه عن طريق قوانين تسنها الحكومة لخدمة الطبقة المستغلة المرتبطة بالاستعمار كل الارتباط .

واذا قلنا بان ايوب بدأ يكتب بروح انسانية فلا نقصد بهذا العمل الانساني الذي يرفع الادب الى مستوى كبير وانما نقصد التعاطف الاجتماعي او الديمقراطية الاجتماعية المتفائلة في نفسه منذ نشأته ، فانه يشعر بانغف الحب نحو الطبقة الدنيا في الشعب العراقي ، يعجب ببساطتها الصافية وطوبتها الساذجة الكريمة ويرثي لجهلها وانحطاط عيشها الذي تحياه ويشعر في ذاته وخز الالم الذي يضمه صمتها الابدي .

وهو يعتمد على التحليل والتعليل يمزجها بالفن القصصي مع انفصال اسلوب الدراسة العلمي والادبي احدهما عن الاخر . ودرست رواياته موضوعات خلقية حساسة دراسة حرة ، وقد انتفع بدراسة علم النفس وعلم الاجتماع والسياسة وما يتصل بالانسان ومشاكله الاجتماعية .

وتكشف شخصية عارف (الرسائل المنسية) رغم تفقهها وقلقها وتهربها خلال اضطرابها وتوترها عن مسارها النفسي بصورة واضحة . فعارف مصاب بالترجسية ، فهو يستسيغ في رسالته الاولى الى حبيبته منطلق حب عدة نساء في زمن واحد ويعترف

(٢٨) ايوب « الرسائل المنسية » ، ص ٥٥

(٢٩ و ٣٠) « اليد والارض والماء » - الاهداء ، ص ١٠٦

بذلك في رسالته الثالثة أيضا . ويقول لها في رسالته الخامسة : (اني لا احبك ولا اشعر بميل اليك بل ولا أعجب بك) ولكنه يقول بعد ذلك (اني احبها ، اجل ولكن على طريقتي الخاصة لا على طريقتها هي) .

والعلة التي تكمن وراء هذا التناقض احساساته (بالانرجسية) وطريقته في التحب تعني ان تحبه كما يحب هو ذاته وان تفتني فيه وان تمتلىء اعجابا بعظمته وفدائه كما يمتلىء هو بها وان تفتنت وجودها في وجوده ، ثم يظهر جوه النرجسي الفريزي بقوله : (اني لا اشعر احيانا برغبة شديدة في قسم بعض اجزاء وجهك بل في التهام كل جسمك الصغير وانمثله حتى يصبح جزءا من كياني) . والرواية لمحات نفسية في مجموعة من الرسائل لا يربطها مستوى وحدة شخصية عارف التي تفتح ابعادها بسلسلة متصلة من الاعترافات .

وقد افاد ايوب من المنهج العلمي في التعرف على الواقع تعرفا صحيحا . وانعكست ازمته كمنتم على استخدامه لهذا المنهج وقد افاد منه في المستوى الفكري اصعاف افادته منه في المستوى الفني ، فلم يكن الترابط فيما بين الاحداث والظواهر والافكار والشخصيات بل كان الانضمام وازحا بين الشكل والمضمون ، فقد تحدث ايوب بأسلوب تقريري سردي في روايته « الدكتور ابراهيم » وافاض في عرض صور فاسدة لبعض الموظفين الكبار الذين صغرت نفوسهم وانحط خلقهم وغدوا لا يؤمنون بمثل سام ولا بفضيلة ، واعتقدوا ان تسخير كل ما في العالم واجب في سبيل الوصول الى ما يريدون من اطعام . وقد رضع ابراهيم الانانية والاستغلال مع حليب امه ، فقد وجد اباه يحسن التفات والتظاهر بالتدين ليخدع عقول السذج ، وقد جمع من ذلك ثروة طائلة ونهيا له نفوذ عريض : (وقد احسن المؤلف حين جعل اباه « فتاح فال » من ايران ، فقد ارتبط الفرس في ذهن العراقيين بالكر والخديعة ، وهي صورة بطل الرواية التي عرضها الكاتب) (٣١) .

وكان ابراهيم في المدرسة مثال الطالب الذي لا يهمله شيء في الدنيا قدر ما نهمة مصلحته ونجاحه . وقد استغل نفوذ ابيه في الذهاب الى انكلترا ، وهناك تعرف بفتاة انكليزية ابنة قسيس كبير ، له نفوذ واسع في دائرة الدولة والاستخبارات فتزوجها . وحينما عاد الى العراق سلك كل الطرق غير الشريفة للحصول على الجاه والثروة حتى انكشفت اساليبه امام الناس جميعا . وعندما فصلته الحكومة من دوائرها بعد ان قام باعمال تعمد فيها مخالفة الانظمة واللوائح من اجل الظفر (بالكرامية) التي ينص عليها القانون في تعويض المسؤولين من وظائفهم ، فشد الرحال الى اميركا ليقتضي بقية حياته هناك .

وهذه الصورة مثال سيء لضرب من موظفي الدولة الكبار يسخرون المصالح العامة في سبيل مصالحهم الخاصة . وهو يبدأ روايته « الدكتور ابراهيم » فيما سماه بالتمهيد على شكل تعليقات لا تدخل في صلب الرواية اطلاقا تحدث فيه عما جرى له من شغب حصل من جرائه على عقوبتين هما : الفصل والتوبيخ وقد بدا غير معقول حديث الزوجة (جني) وهي تنقذ زوجها وتنفذ قومه امام المؤلف وكانها غير راضية عن تصرفاته في حين اننا لم نر في سياق الرواية كلها شيئا يدل على ذلك .

وقد اورد آراء غير ناضجة تتمثل في تلك المحاوره بينه وبين الدكتور ابراهيم عن اسلوبهما في الحياة اشترك فيهما الانكليزي الضيف وذهب كل منها يبرهن ان قومه يقدرسون الحربه بأسلوب

(٣١) جميل سعيد : التيارات الادبية الحديثة (فسي

العراق) ص ٦

لا يعلو على اسلوب طلبة المدارس وكانت صراحة الدكتور ابراهيم في رسالته للمؤلف صراحة في غير المعقول ان تصدر عن شخص له مثل اخلاقه (٣٢) .

وقد حفلت كثير من الفصول بسرد عام لوضع السياسة والمجتمع تضائل فيها نصيب الدكتور ابراهيم وبرزت شخصية الفصاح باهدافها وارائها تنص على المسؤولين ومفاهيمهم المغلوطة بما يتعلق بالشيوعية وغيرها من المبادئ التي جعلت ذريعة لكم الافواه واسكات الاحرار . وقد وصف المؤلف يحض رجال الحكم وينصحهم بان يلزموا جانب الصواب . وكذلك في حديثه عن النزعات المذهبية والسياسية وفي حديثه عن القوانين وتلاعب الحكام بها ووضعهم القوانين لا من اجل تنظيم شؤون الرعية بل من اجل الحاق الضرر باعدائهم مثل تشريع (قانون الذيل) الذي تم بواسطته فصل عدد من الموظفين غير المرغوب فيهم وانذي اسهب المؤلف في الحديث عنه ومن حديثه عن الصحافة المأجورة وعن الطريق المغلوطة في اختيار طلاب البعثات الى الخارج . وفي الحديث عن رجال الدين وشعوذتهم .

ويرمي ايوب الى غاية ما برح يميظ اللثام عنها في كل مقدمة وفي كل اهداء شان المرابي الحريص على مستقبل طلابه وتابعيه يريد لهم النور يكافحون من اجله ويريد ان يعشقوا الحرية ويسعوا اليها ويريد ابطلا مسلحين بالمقل والمنطق والجرأة في حربهم على الباطل اما روايته الثانية (اليد والارض والماء) فهي اكثر افناعا واشراقا وقوة في البناء (٣٣) .

يتناول سليم للشفاء من جروحه التي يصاب بها على اثر نزاع قبلي من اجل قطعة صغيرة من الارض بفضل عناية الدكتور (حسام) فيدعوه وخطيبته هيفاء وصدقها المحامي (ماجد) السي مضارب العشيبة فيلبون الدعوة ويكرمون اكراما كبيرا . ويعرض احدهم على الضيوف فكرة المشاركة في عمل زراعي فتلاقي الفكرة ترحيبا ويستأجرون ارضا اميرية في منطقة (النهروان) لتحقيق الفكرة . وتتصافر الجهود على شراء الآلات والبذور واصلاح الارض واعادتها للزراعة ويقام احتفال كبير بهذه المناسبة ويقدم الشركاء القروض للفلاحين لشراء القوت حتى ينضج الزرع وتدخل (سنية) في هذا المشروع بما تملك من مال اثر لقاتها لماجد في دار الدكتور حسام واعجابها . ويلاقي الشركاء صعوبات جمة في تسيير المشروع وتتجلى المشاكل في فساد رجال الادارة وانتشار الرشوة والافات الزراعية والعواصف الرطبة وجشع الملاك ومحاولتهم السيطرة على الارض بمساعدة رجال الادارة .

وامام هذه المشاكل المتتالية على اسقاط المشروع يفشل المشروع ويخسر ماجد كل ثروته ولكنه يعوض خسارته بزواجه من سنية التي احبها ووجد فيها المرأة المثلى .

وتشترك سنية في المظاهرات الشصبية التي تكتسح العراق ضد معاهدة (بورتسمات) وينقذها ماجد من بطش رجال الامن ولكنه لا يتمكن من انقاذ (سليم) الذي يؤخذ الى المستشفى لمعالجة جرحه البليغ ويشرف عليه اثنان من اصدقائه حسام وهيفاء حتى يتمائل للشفاء .

وهذا الصراع بين الفلاحين والاقطاعيين على تلك الارض يحدث دائما لانه وسيلتهم الاولى والوحيدة للنتاج وباستطاعة اي مؤرخ ان يقلب اوراق الصحف العراقية ليجد مثل هذا الصراع ولكن الجديد

(٣٢) عبد القادر حسن امين (القصص) صفحة ١٧٩ .

(٣٣) يقول عنها سهيل ادريس (واما موضوع رواية ايوب الثانية اليد والارض والماء فهي اجمل موضوعات الادب الروائي الحديث ومن اكثرها اهمية في هذا العهد من تاريخ البلاد العربية) القصة العراقية الحديثة « الآداب » ، الممد - ٤ - ١٩٥٣ .

في الرواية استخدام ايوب الناجح للعناصر النفسية التي عملت على تحريك المناسبة ثم اظهار ايجابية الشعب الناتجة عن الوعي الجديد . وبفضل استخدام المؤلف لهذه العناصر النفسية على اساس الخيال الواقعي السليم استطاع ان يعطي روايته قيمة انسانية خالدة ولم يعد حين قال في مقدمتها : « رؤيا بناها الخيال من لبنات الواقع وملاطه وزخرفها الفن باوان المحيط واصباغسه فهي خيال محض ان اردت واقما محضاً وهي حقائق صادقة ان اردت حقائق عامة غير مربوطة بقيود او حدود » .

واستطاع المؤلف ان يعطيها قيمة انسانية تآتت من آن الناس قد تتحكم فيها الاوهام اكثر مما تتحقق فيها الحقائق كما عند فلاحي المنطقة التي زرعها ماجد فهم يعملون ليل نهار لتحقيق الانتصار على الاقطاعيين الذين امتصوا دماءهم (وطلب ماجد من سليم ان يريح الفلاحين فضحك سليم وقال اطلب انت ذلك منهم اذا استطعت وسترى كيف يجيبونك . واستمر العمل طيلة ذلك اليوم تحت اشعة القمر ولما استيقظ في صباح اليوم التالي وجد ان الخيل قد ابتعدت في الافق حتى كادت تقيب فيه وما كان العمل يتوقف لئلا اكياس البذور او لراحة الدواب في فترات قصيرة (٢٤) .

وكذلك في صراع الشعب كله ضد الحكومة التي قيدهت بمعاودة مع الانجليز تستغل سنوات عديدة وتربطه بعجلة الاستعمار حتى رخص دم هذا الشعب المسكين المستقل .

وقد اعطانا المؤلف قيمة درامية تتأني من تلك المفاجآت المحكمة التي استطاع بخيال موفق ان يعث بها الحركة والتشويق عندما كشف لنا سوء الفهم الذي تسرب للفلاحين بعد فشل المشروع والاقطاب الذي طرأ على شخصية (سليم) بعد ان لس خيانة عشيرته لاصدقائه وشركائه (ماجد وزمرته) والتغيير في مفهوم ايوب لا يقتصر في اذهاننا بالصور الجميلة المتفائلة فان نهايات السقوط والانهار تكسب لونها الاسود والحصيلة الختامية التي تفوز بها ان جميع الطرق مسدودة امام الوسائل الفردية للمتمرد . ولم يعد هناك سوى الثورة الشاملة . هذا ما اكدته الرواية . ان موضوع ايوب في روايته كان على الدوام التعبير عن امل الانسان في ان تتخطى ارادته كل العقبات وان ينتصر . ولكنه عرض هذه الارادة بصورة مختلفة وجميعها منتزعة من البيئة العراقية فهو لا يكتب عن الماضي ولا يهتم لانه متعلق بالواقع بقوة . وتوزعت روايات ايوب بين قضية الاقطاع الديني والاقطاع الزمني وقضية المرأة التي نادى بها كما نادى بالحرية الكاملة للانسان ، وتمرد فيها على جملة التقاليد والشرائع والمواصفات الاجتماعية . وقد تطور فن الكاتب بعد الحرب العالمية الثانية غير ان هذا التطور تم ببطء في حدود فن الكاتب ولكنه اذا قيس بالتطور العام الذي سار في شكل الرواية العراقية لا يعد تطوراً فقد ازدادت الحكمة احكاماً وبدت الوحدة العضوية بين بداية الرواية ونهايتها اشد تماسكاً .

هذا التطور نحو الاحسن كان يتم في فن ايوب ولكن الرواية العراقية لم تقف عند الشكل الكلاسيكي لها او الاصولي الذي آثر ايوب اتباعه وانما تطور تطوراً اوسع واستخدم كتاب الرواية تقنيات جديدة واشكالا اكثر تنوعاً عند (٣٥) عند فؤاد التكرلي وانيس زكي حسن وغائب طعمة فرسان ويقول ايوب : (في يقيني ان اعظم مهمة يجب على الادباء والتصيين منهم على الاخص ان يسطعوا بهما هي اعطاء صور صادقة لما يقع تحت ابصارهم من حوادث عجيبة وشخصيات وانظمة وقوانين حكومية وشعبية ويدخل ضمن ذلك تلك القوانين غير المكتوبة التي يقع تحت تأثيرها المجتمع تلك الانظمة المتعارضة والتقاليد المرعبة التي تسرب احترامها في دمه والتي

(٢٤) ايوب (اليد والارض والماء) صفحة ٦٠ .

(٢٥) انظر رسالتنا في الماجستير .

يتعصب بها فيعمى عما فيها من حسن وقبح وتزداد هذه الصور قيمة كلما اختلطت بشيء من التحليل يجمع بين نواحيها المتباعدة ومظاهرها المرتبكة فيفسر ما غمض من اسبابها وعللها (٣٦) .

وقد اخذ الكاتب نفسه في رواياته بما قتل الا انه كان يضمن كثيراً في التحليل والوعظ امعانا يجعل القارئ يسرع في تجاوز الصفحات والسطور احياناً هرباً من ذلك التحليل والوعظ وهو من اكبر ما يؤخذ على الكاتب من عيوب لانه ينقل القارئ من قراءة رواية الى قراءة كتاب اجتماعي كما شحنت رواياته هنا وهناك بتدخلاته واظلاله رأسه ليبين رأياً يسوق دليلاً او يرضي نفسه المنمردة ضد التقاليد البالية او ليوحى لنا بما يجب ان تؤمن به (الحرية ، الحرية تلك الكلمة المقدسة التي يحاربون من اجل تصفيها وتجريدها من سوء الاغراض والمقاصد الفاسدة ليحصلوا عليها باكمل شكل وابهى صورة . بهذه الصورة سيتبين الخبيث من الطيب والحسن من الرديء والمخلص من الخائن . اني ارى يوماً سيأتي على هذه البلاد تطلق فيها الاقلام من عقالها فتجول في كل جهة وفي مختلف المقاصد . ولو احترمت الحرية في هذه البلاد لما قدر لتلك الصحف الهزيلة التذبذبة الخبيثة ان تبقى كالحشرات تعبت في خرائب قصر شامخ هدمته العاصفة ولم تبق على ساكنيه. » ومع ان تدخله كان يجعله احياناً وسيطاً مسلماً وباعثاً على التشويق والحماس لما حوى من تمرد وانانية فان تقريراته العديدة وتدخلاته المستمرة تعوق سير الحادثة وتقطع خيوط الرواية وتشكل فيها نقیصة فنية (٣٧) .

وكتابات ايوب تستهدف الفكرة السياسية والاجتماعية وقد حصر امانيه في مستقبل افضل للطبقات العاملة ، وللشعب العراقي قبل كل شيء . ان اهداف ايوب سهلة يسيرة . كان يقص قصة ، كان يسجل حقيقة ، كان يكشف لنا عن عيب او نقص او كان في معظم الاحيان يؤدي هذه الاغراض الثلاثة في وقت معا . وقلما كان ايوب قصيصاً بكل ما تحمل هذه العبارات من معنى . ذلك لان القصيص يضع نصب عينه ان يعرض امام انظارنا رجالاً ونساء ويجري وراء البحث عن عاطفة او اساس من اساس الفهم . ومن ناحية اخرى نرى ان الهجاء يتتبع سقطة من سقطات الشخصية او زلة من زلاتها ثم يحاول ان يتأثر بها وكانت الشخصيات التي يصورها شديدة الوقع والاثر عندما تكون انماطاً تميل اسباب فشلها وسقوطها والكاتب لا يقوم بعملية اختيار اذ يمكن محو بعض الفصول وتظل الرواية كما هي دون ان يؤثر فيها هذا الحذف شيئاً مثال ذلك الفصل الرابع الذي جعل عنوانه (عاهره) والقسم الذي اطلق عليه اسم (تمهيد) والذي يتحدث فيه المؤلف عن نفسه وعن نقله من بغداد ويشمل خمساً واربعين صفحة في رواية (الدكتور ابراهيم) بالإضافة الى افاضة المؤلف في التحليل والتفسير حتى درجة الاملال .

(٣٦) ايوب (رسل الثقافة) صفحة ٢ .

(٣٧) نيللي كورمو (فيزيولوجية القصة) الاداب العدد - ١ - ١٩٥٤ وهذه الخصائص تظهر في الرواية الاجتماعية التي تقدم فيها الدعوات الانسانية الى البطولة والثورة او اي شكل من اشكال العمل الجماعي . ولعل الادب الذي يتعد اليوم عن الطريق الذي تشقه امام الجميع هذه الضرورة التاريخية التي تتلخص في تفسير مجتمع ما - لعل مثل هذا الادب يوشك ان يسقط في النفاهة والخلو من المعنى ولكن ينبغي للآثر الفني مع ذلك الا يوضع لقاية منفعه فهو حتى اذا حمل رسالة اخلاقية فينبغي ان يتفادى الخطب الدعائية الى الاخلاق . وان قصة الفكرة هي دائماً قصة رديئة اذا لم تقم فيها الفكرة بصورة ضمنية واذا بسطت بشكل نظريات بسدلاً من ان ينبثق انشاقاً من الحكمة او من نفسية الابطال .

تقسيم روايته الى اقسام وفصول يضم كل قسم منها رحلة من حياة الشخصية فقد يربط المؤلف بين القسم الاول الذي يتحدث فيه الكاتب عن نفسه (والقسم الثاني الذي يتحدث فيه (الدكتور ابراهيم) عن طفولته عن طريق هذا التقسيم . فالقسم الاول استخدم فيه المؤلف طريقة السرد عن طريق ضمير المتكلم بينما اتبع في القسم الثاني طريقة الرسائل التي كان يرسلها ابراهيم الى المؤلف . وسلك ايوب نفس الطريق في (الرسائل المنسية) اما في (اليد والارض والسماء) فقد استخدم ضمير الغائب ولم يضطر الى تقسيمها الى اقسام كما فعل في روايته السابقتين ، بل اكثر من الفصول الصغيرة التي بلغت خمسة واربعين فصلا . وكان من الافضل ان يضم بعضها الى بعض ويختصر لتكون الفصول ادل على مراحل الرواية ونموها .

ويضاف الى ما سبق انه وقع في اخطاء متعلقة بالحدث فهو على سبيل المثال في (اليد والارض والماء) يذكر ان (المفوض) اخذ قطعتي الغيار اللتين بواسطتهما تشتغل مكائن السفن واخبرنا المؤلف في الفصل نفسه ان الاداتين قد اعيدتا (٤٢) فكيف اذن ذوى الزرع لانقطاع الماء طوال شهر كامل وليس هناك ما يحل على الظن بفوات هذه المدة الزمنية .

والمادة الخام عند ايوب نماذج من الطبقة الوسطى بتقاليدها ومشاكل احيائها الناشئة هذه الطبقة التي اخذت تتطور بسرعة فيما بين الحربين وما بعد الحرب الثانية وترمي عنها القشور التي تحجرت قرونا حولها فكانت تلتذذ باجترار عيوبها والتلمظ بنقصانها . وقصص ايوب كقصص عبد الحق فاضل كانت نوعا من عقاب الذات جللت به البورجوازية العراقية نفسها ليتكشف فيها الانسان المتطور المتالم وراء القواقع التقليدية المتحجرة وكانت خطوة متقدمة في سبيل مجتمع جديد . وهو ككل فنان يستغل هذه النماذج لشرح لنا فلسفته التي تدور حول الحياة باعتبارها ظاهرة اجتماعية وقد دفعه نزوعه نحو نقد تقاليد المجتمع الى العنابة بالسرد اكثر من عنايته بالحوار . بل ان الحوار يبهت في روايته (الدكتور ابراهيم) و (الرسائل المنسية) وتقوم مقامه حركة استطرادية وبيروز في هذه الحركة اهتمام خاص بالشخصية الشخصية الكاتب نفسه وشخصيات ابطاله . وكثيرا ما يحس ذاته بل انه يجعلها ثورة التجربة ، ولم يكف بذلك بل يذهب الى نقص الكثير من شخصياته وفي هذه الحقيقة تكمن ميزات مخلوقاته . انه يخلق نفسه فيها ويصورها كما تراها عيناه كما فعل في شخصية (ماجد) في (اليد والارض والماء) وشخصية (عارف) في (الرسائل المنسية) .

ولا يمكن ان ينفصل ابطال ايوب عن بيئاتهم التي يعيشون فيها فالبطل عنده هو الواقع نفسه وهو الحياة في وطنه ، تلك الحياة التي كان ابطاله جزءا لا يتجزأ منها ، وهو يمثل ابطاله في كفاحهم ضد حياتهم الاجتماعية الضيقة لذا يعد هؤلاء الابطال ممثلين للتيارات التقدمية والنزعات الإصلاحية في المجتمع العراقي .

وتبدو شخصيات ايوب الروائية بعض الاحيان وقد فقدت فرصها وارتكبت اخطاء شنيعة بالرغم من تكريسها لجهودها في سبيل تحقيق هدفها وهذا ناتج عن تمسك الكاتب بالواقع ورسمه قدر المستطاع فقد كان من الافضل مثلا لو نجح (ماجد) بطل (اليد والارض والماء) ورهطه متخطيا اشواك المجتمع صارعا عوامل الجشع والانانية كما نجح عارف ((الرسائل المنسية)) فذلك اجدر بخدمة اغراض الكاتب في الإصلاح .

والكاتب يصف شخصياته ويحدد بعض لمحات قشرتها الخارجية فهو يصف الدكتور ابراهيم على سبيل المثال بقوله (شديد السمرة مدبب الأنف ، نحيف البنية في ميل الى الطول ويسير بخفة وحذر

ويصر ايوب في روايته الثانية (اليد والارض والماء) على الا يضحى بشيء من آرائه واهدافه في الحياة من اجل فنية الرواية . وقد اهتم فيها بالجزئيات دون التركيز على الاثر الاساسي لان الامر في نظره لا يتعلق كثيرا بتطور هذا الاثر بقدر ما يتعلق بتصوير الجزئيات وتجسيمها حتى لتطفي على الشخصية او الشخصيات الكبيرة في كيان الرواية كلها . كذلك ان غرضه الاول ارساء الثقل كله على تلك الامراض الاجتماعية والقاء اكبر قسط في الضوء عليها ليفتحها امام القارئ . (كما ان الجزء الاخير منها قد اقم احكاما عليها لان الكاتب اراد ان يربط الزرع والزراع بالمظاهرة التي اقامها العراقيون احتجاجا على معاهدة (بورتسموث) والتي ذهب ضحيتها عدد قليل من الناس . وكل ما اراد الكاتب ان يتحدث في هذه الانتفاضة فالحقها بالرواية وربطها بها .

وانخذ من سليم بطلا في المظاهرة كما اتخذ منه بطلا في المزرعة (٢٨) وامتلات رواياته بسهام النقد الحادة لمظاهر الحياة الاجتماعية في العراق الى درجة الحشو والاملال (٢٩) .

كما زخرف هذه الروايات بالمواقف المصطنعة التي ما اوردها المؤلف الا لاثبات وجهة نظره او لعرض فكرة من افكاره او رأي من آرائه . فهو يريد ان يجمع ما بين (ماجد) المحامي و (سليم) الفلاح الثائر الجريح في المستشفى فيجعل صديقه ماجد الدكتور حسام وخطيبته الدكتورة (هيفاء) يقيمان حفلة لماجد في المستشفى يدار فيها الخمر ويجالسها فيها (سليم) المريض (في المستشفى) (٤٠) او يضع كلاما غير مناسب على لسان بعض شخصياته فيقول (زباله) على سبيل المثال وهو فلاح متعصب لسنية المتحررة ، (لقد كسرت ام حسن (يعني زوجته) يد السحاة على رأسي) .

ومما يستلفت النظر في بنائه الروائي قلة الحركة ، وغلبة السرد . وعجز المؤلف عن نقل قارئه الى جو الاجتماعات والاحاديث الدائرة بكثرة حتى يشعر انه بين الابطال يعايشهم ويشعر بشعورهم ويشاركهم في مسراتهم والامهم . فرواية الدكتور ابراهيم ليست الا دراسة لشخصية ابراهيم تتحرك رويدا رويدا ونقص بالتفاصيل التي تبدو لا اهمية لها كتصوير علاقة (ابراهيم) الطفل بزوجة ابيه (سكينه) وابراز الاحساسات الجنسية لابراهيم عندما تضمه زوجة ابيه اليها (واخذتني بين زراعيها وشعرت بجسمها وتديها ملتصقين بي - ودفعني الخوف الى الالتصاق بزوجة ابي واخفاء رأسي بين تديها الصغيرين - ورقدت الى جانبي فالتصقت بجسمها اللين ابتقي الدفء واحسست بذراعيها تضان جسمي الى صدرها الدافئ فانتشيت (٤١) .

وربطها بالماهرة التي ضاجعتها في دمشق اما اعجب ما خرنبي من الاعتقاد بوجود تشابه غريب بين عاطفتها وعاطفة سكينه زوجة ابي الصقري (٤٢) كما ان الارتباط من فصول رواياته ضعيف وتنقله من فصل الى فصل اشبه بتنقل كتاب السير الذين يعنون باضاعة جوانب مختلفة ، ولا ترتب عليهم ان اهملوا الحكمة او انقطعت الصلة بين جانب اخر . وقد حاول المؤلف ان يعطي ذلك الغيب عن طريق

(٢٨) جميل سعيد المصدر السابق صفحة ٣٥ .

(٢٩) المصدر السابق : ١٠ - ١١ ، ٣٨ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٤٢ ، ١٤٤ - ١٤٤ ، ٢١١ ، ٥٤ - ٥٥ ، ٦٠ ، ٦٨ ، ٦٩ ، ٧٤ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ٦٥ - ٦٦ ، ١٥٢ ، ١٦٠ ، ١٦١ ، ١٦٨ ، ١٧٠ ، ١٩٥ - على التوالي .

(٤٠) (اليد والارض والماء ١٦ - ١٧ ، ٢٦ ، ٣٠ ، ٤٥ ، ٥٠ ، ١٠٦ ، ١٢٩ ، ١٤٤ .

(٤١) (اليد والارض والماء صفحة ١١ .

(٤٢) (اليد والارض والماء) صفحة ٧٤ - ٧٦ .

(٤٣) (اليد والارض والماء) صفحة ٧٤ - ٧٦ .

ويراقب بزواوتي عينيه دون ان يظهر عليه انه يرى ، ترى ظل
ابتسامه خفيفة على وجهه (٤٤) ويصف زوجة (ابراهيم جني) بقوله:
(بنظرانها الرقيقة المنبثقة من حدقتين زرقاوين ذواتي لون فانح
وكان وجهها رقيقا وشفتاها ريفيتين في طول لا يتناسب مع رقبته
الوجه والانف الاصغر وكانت رشيقة القامة لا تزيد في الوزن عن
الدكتور ابراهيم ولكنها اطول منه قامة وكانت تتكلم بقوة ونظر في
عين الانسان راسا وتسوق الحديث بصراحة دون تستر (٤٥) .

وسار في نفس الطريق في وصف والد الدكتور ابراهيم
والدته ، وهذا ما فعله في وصف ماجد وسنية في (اليد
والارض والماء) وهو يعتمد احيانا الى تعمق شخصياته واستيطان
ما يدور في داخل او تحليل نفسياتها وعواطفها . فالدكتور ابراهيم
يحدثنا عن احساسه بعد عودته من انكلترا قائلا: (وقد سلمت على
اخوتي بشيء من الاحتقار ومع ان ابي كان يسكن في هذه المرة بيتا
كبيرا في الموصل فقد عفت ذلك البيت ولم احتمل البقاء فيه اكثر
من يومين اما امي فقد علمت انها ماتت فلم اشعر بشيء من الاسف
اذا لم اقل بانني سررت ولقد رأيت كثيرا من رفاقي وصحبي يوم كنت
تلميذا معهم فتجاهلتهم جميعا (٤٦) .

ويضيف عارف عواطفه نحو زوجته في رسالة بعثها اليها في
الرسائل النسبية قائلا: (اي اني لا احبك ولا اشعر بميل اليك
ولا اعجب بك ولكني اشعر بعطف عليك يقيدني الى حد الموت وكل
ما اخشى هو ان اتور يوما على القيد الذي كبلني فيتلشى هذا
العطف (٤٧) .

ولم يصور المؤلف فاق شخصياته وصراعا العميق وانما يعرضها
لمواقف متضاربة ولجملة من المفارقات المتكاملة ، يرجع فيها تغليب
احد المواقف التي تغفها الشخصية . كما فعل في رسم شخصية
(الدكتور ابراهيم) او يجعلها تنهزم من الحياة عموما وتبدو هذه
الخاصية التي تتسم بطابع المسأة في شخصية (ماجد) بطل اليد
والارض والماء) وشخصية (سها) بطلة الرسائل النسبية . ونجد
في روايات المؤلف محاولة واضحة لرسم شخصيات منسقة يمنحها
المؤلف حظا لا بأس به من التماسك ويضفي عليها فدرا من التطور كما
فعل في شخصيتي (سليم) في (اليد والارض والماء) الذي نمت
شخصيته من فلاح جاهل الى رجل مناضل نتيجة الاحداث التي مر
بها فقد بدأ من نقطة معينة هي تفتحه وتطلعه الى هدف يريد بلوغه
ويعاني عذابا كبيرا في سبيل ذلك ثم ينتهي الى الفشل ولم يبلغ
غرضه وكذلك شخصية (عارف) الشاب المريض بالرجسية وتقديس
الذات .

وتميل بعض هذه الشخصيات الى العزلة والانزواء مثل
شخصية نزار وسها واخرين يعيشون في ثورة الحياة يكافحون من
اجل وجودهم مثل الدكتور ابراهيم وماجد وسنية والشيخ اسماعيل
وسليم وزباله . وهم محبوبون لانهم صريحون لا يخافون في الحق
لومة لائم . ولكن هذه الشخصيات تفتقر الى الصبغة الانسانية
فهم قسمان خيره مثل ماجده وسنية وسليم او شريرة مثل الدكتور
ابراهيم ووالده الشيخ اسماعيل والاقطاعي (صالح جبر) . وتبدو
هذه الشخصيات نماذج جامدة لا تحركها العواطف الانسانية بل يسد
المؤلف فهي تتحول على يديه الى مجرد ادوات ورموز لتثقل لنا افكاره

(٤٤) ايوب (الدكتور ابراهيم) ٢١ - ٢٤ .

(٤٥) ايوب (الدكتور ابراهيم) ٢١ ، ٢٤ .

(٤٦) المصدر السابق ١٣١ وكذلك صفحة ٦ ، ٨ ، ١٨٧ ،

١٨٨ ، ١٩٩ ، ٢٠٠ .

(٤٧) ايوب (الرسائل النسبية) صفحة ٢٠ .

واراه في الحياة والمجتمع وربما نستطيع ان نفهمها فهما اوضح اذا
قارناها به نفسه او بموقفه من الحياة والقسم الاخر من عالم ايوب
ينحصر في الشخصيات الشريفة وهم فريق رجال السياسة يحصي
عليهم تصرفاتهم ويسجل مثالبهم ويعدهق احيانا في سبر نفوسهم
لكشف عنصر الشر فيها وبما انطعت به اعمالهم من انانية وخداع
واغفال المصلحة العامة التي فرض عليهم ان يسهروا عليها كما فعل
مع الشخصيات التالية الدكتور ابراهيم ووالده الشيخ اسماعيل
والاقطاعي صالح جبر وينجح الكاتب في اثاره القراء وملء صدورهم
حننا عليهم ، كما ينجح في اثاره الرضاء المشوب بالازدراء تجري في
اعقاب اولئك الساسة الذين تنكروا على ما اصابوا من مفاهيم بعد
الدرس والتحصيل العلمي وتجاهلوا المثل الاخلاقية العليا ، بينما على
الابطال الذين يحبهم مثل ماجد وسنيه وسليم وحسام وعسار
صفات تقرب من القلوب وتحيطهم بهالة من الاعجاب والاحترام وان
بدأوا احيانا غريبي الاطوار لا يستطيعون التلاؤم مع الحياة .

ولغة الكاتب مصبرة بصورة عامة وان كانت لا ترتفع الا قليلا
عن الاسلوب الصحفي البسيط . ولا يخلو اسلوبه من اخطاء لغوية
ومرد ذلك الى سرعته في النشر . فقد استعمل كلمة (المؤجرة)
يريد بها (المستاجر) لان المؤجر الحكومة التي اجرت الارض
والمستاجر هو ماجد وليس مؤجرا ، واللغة يجب ان تحرص على الا
تطفئ الكلمات الشوهاء على كتاباتنا تلك الكلمات التي توجد في
الارض القاحلة للاستعمال الرسمي والتي تحملق نحونا في صفحات
الجرائد واعمدتها (٤٨) .

وليس من السهل ان نقول ان لا يوب اسلوبا خاصا به ، لانه
اديب كثير القراءة تمتاز مطالعته بعضها ببعض فتتال في كل فترة
من حياته نصيبها في خلق لون من الادب فقد اصطنع لنفسه اول
الامر اي في فترة ما بين الحربين اسلوبا سهلا لا يابه باناقته ومال
اخيرا اي بعد الحرب العالمية الثانية الى اسلوب رصين يحرص
اشد الحرص على سلامته واناقته واصالة جرسه . ونمت دعابته
ورقت وغلب طابعها على كتاباته كليا ولكنها لا توجد الا عند رسم
اللوحات المستمدة من وصف الاشخاص لا من تركيب الحوادث فهو
يسخر من الدكتور ابراهيم بقوله (وكان اكثر الجميع اهتماما بالدور
الذي اسند اليه فقد شرع بتنفيذ مهمته فور خروج زاتيه فجر
مقالة ضافية ينتقد بها شؤون الزراعة ولم يعتمد على احصاء او تقرير
او بحث او تحر ذاتي فهو اكبر من ان يعتمد على مثل هذه الامور
والا من فائدة الشهادة العالية (٤٩) .

ويستعين بمثل هذه السخرية للليل ممن يصنعه هدفا لنقده
وقد يسف احيانا في تقده بذكر نعوت مختلفة مثل قوله وهو يصف
خصام مراجع مع الدكتور ابراهيم في دائرته (ورفع عن كرسيه كما
يرفع جروا ورمى به الى الارض (٥٠) .

ولم يكن ثمة مناص من ان يصبح مالكا لزاما السخرية اللاذعة
وان يسود فيها لانه استهجن كثيرا من التقاليد والاتجاهات التي
كانت سائدة في مجتمعه على انه مع استهجانه للكثير من هذه
التقاليد والافاض لم يكف عن ابداء مظاهر الاعجاب لبعضها الاخر
ومن اجتماع هذا الاعجاب والاستهجان ولدت السخرية في نفسه
ولكن اشد السخرية واكثرها ايلاما تلك الصور الفارقة التي يوفق
الكاتب الى رسمها احيانا (...) وشكت امرأة زوجها الى القضاة
وادعت بانها لا يحبها لانه شيوعي وشم ضابط الشرطة احد المتهمين

(٤٨) فيرا انيرا (انا ومهنة الادب) مجلة الشرق العدد - ٦

١٩٥٧ -

(٤٩) (الدكتور ابراهيم) صفحة ١١ .

(٥٠) المصدر السابق صفحة ١٦ .

ويشبه ايوب محمود احمد السيد في انهما لا يكتبان الا ما يريانه ويلمسانه وتعد كتابات ايوب امتدادا لكتابات محمود السيد لانهما سلكا طريقا واحدا في كتابة الرواية يهدف الاصلاح الاجتماعي وتقد الاوضاع السياسية في العراق قبل اهتمامهما بما يستلزمه الفن وهما يتشابهان في كتاباتهما بما فيها من صدق وتجسارب شخصية وتشعره للغة او الكلمة ان مشاهداتهما قطع من نفسيهما ويحاربهما في ذلك جعفر الخليلي الا انه يختلف عنهما لانه قصر اهتمامه على الظواهر الاجتماعية دون ان يسلك دروب السياسة في كتاباته كما فعلا .

ولذنون ايوب فضل كبير على القصة العراقية فقد ضرب للقصصيين العراقيين مثلا رائعا للكاتب كي يخلص لفنه ويوقف عليه همه وقد استرعى المؤلف منذ ان نشر مجموعاته القصصية ورواياته الدكتور ابراهيم في الثلاثينات انتباه مواطنيه لبساطة موضوعاته واتجاهاته الثقافية والتعليمية كما لفت نظر النقاد للبيين السابقين وحمل المستشرقون اسمه ومؤلفاته الى بلاد اوروبا وخصوصا روسيا ففرت بفضلها شيئا من الادب العربي في العراق .

عمر الطالب

كلية الآداب - جامعة الموصل

(٥٣) المصدر السابق صفحة ١١٦ - ١١٧ .

دراسات ادبية

من منشورات دار الآداب

٤٠٠	د . طه حسين	مذكرات طه حسين
٢٥٠	د. طه حسين	من ادبنا المعاصر
٢٠٠	ر . م. البيريس	سارتر والوجودية
٢٥٠	خليل هندواوي	تجديد رسالة الفران
٦٥٠	فرانسيس جاتسون	سيمون دوبوفوار
٦٠٠	ا . ا . هوتشز	بابا همنغواي
٤٠٠	رئيف خوري	الادب المسؤول
٣٥٠	رجاء النقاش	اصوات غاضبة في الادب والنقد
٢٥٠	صلاح عبدالصبور	وتبقى الكلمة (دراسات نقدية)
٢٥٠	د . زكي مبارك	بين آدم وحواء
٢٥٠	د . جلال الخياط	التكسب بالشعر
		محمود احمد السيد
٤٠٠	د. علي جواد الطاهر	رائد القصة الحديثة في العراق
٥٠٠	د . زكريا ابراهيم	مشكلة الحب
٢٥٠	سامي خشبة	شخصيات من ادب المقاومة

بهذه التهمة بقوله : اديسزيه لينكراد قاعد بموسكو يشرب عسرق وانتو تبشون الدعابة هنا . وانتهى لواط من اللواط بفلام وخرج توا فاجتمع برفيق كان يقرأ مقالا في السفور وتحبيذه فصاح بوجهه : اما تستنخوا في مطالعة هذه الورقيات التي تنشر المبادئ الشيوعية والاباحية (٥١) .

وفي هذه الروح الساخرة تكمن المأساة لسخريته نابعة من الالم الذي يعيشه الشعب العراقي مقيدا بقيود اجتماعية وسياسية ثقيلة اما حوار ه فيشف عن تمكن المؤلف من استخدام الحوار وقدرته على ادارته رغم ما يلوح بانه يعبر عن افكار محدودة يوزعها بالتناوب على ابطاله لكي يصل من خلال الحوار الى ما يبقي عرضه من آراء وافكار اصلاحية وان ذلك ضعفائي البناء لانه لا يساعد على رسم الشخصيات وتطور الحدث .

وقد استخدم المؤلف حوارا بلغة سليمة وسهلة تجمع بين رصانة الفصحى العامية ، التي يسمونها (باللغة الوسط) وهذا حوار حسن ولا سيما وان ادبنا العربي ينتشر في جميع الدول العربية التي تربطنا بها اساسا اللغة العربية والكاتب الماهر هو من يستطيع ان يطعم اللغة بخصائص لغة الافراد او المقاطعات على ان يدخلها في روح اللغة العامة ومعنى هذا هو ان روح اللغة اعني خصائصها المميزة يجب ان تحترم حتى في الحوار الواقعي نفسه (والواقعية الحقيقية ليست في الالفاظ وانما هي الآراء . فالكاتب القصيص الذي يقتصر في تصوير شخصياته على الآراء الواضحة التي تبدي عادة لا يؤدي رسالته ، اذ من واجبه ان يمد يدا جريئة تفتح الابواب وتشق الحجب (٥٢) .

وقد جعل ايوب شخصياته تتكلم بمستوى لغوي واحد في بعض المواقف وخاصة اذا كانت اللغة المستعملة غير العامية التي تتكلم وتفكر بها في الحياة فيهدم اسمها الواقعية التي هي السبب في كيانه لان الحدث انما يقوم على الاشخاص وتفاعل بعضهم مع بعض فان جاءت محاكاة الاشخاص ناقصة جاء الحدث ناقصا وبالتالي انعدمت الواقعية . ولعل السبب في ذلك ان كتابنا ومنهم المؤلف لم يتخلصوا بعد من المفهوم القديم للادب الذي يقوم على الصياغة اللفظية . وهو يختلف تماما عن المفهوم الذي قامت عليه الرواية في الادب الغربية وهي الرواية التي يحاول كتابنا تقليدها بصف الكاتب ما دار في اول لقاء للدكتور ابراهيم مع اهل صديقه (تومي) في انكلترا (وخاطبت اخاها قائلة : لست اغتفر لك ان يكون لديك صديق عربي جنتلمان فلا تعرفني به الا بعد هذا الوقت الطويل فاجاب ضاحكا لم ار منه ما يشجعني فقد كنت الاحظ نفوره من الاختلاط بالفتيات وكنت ارى وجهه يحمر حتى الاذن عندما يتكلم مع احدى التلميذات فلم ارد ان ازعجه ولكن لم اكن اعلم انه فارس موفق الى هذا الحد في ميدان اجتذاب القلوب فحذار (يا جنبي) انه فارس عربي من اسرة عريقة فاجابت (جنبي) تالله ما اخبتك واجبت على الفور : ان الانسة لتجتذب القلوب النافرة وتطلق اللسان التلعثمثة انها لا تتكلف ولا تتعجرف وان رقتها لتفيض فتعدي وصاحت الفتاة بامها ماما او تسمعين باي لغة يتكلم هذا الفارس العربي الغزل ؟ ونظرت الام الى الاب وقالت ما اسرع : ما اسرع ما تالفا ، تالله من كان يظن ان عند العرب مثل هذه اللباقة . كم من الزمن قضيت في لندن يا بني ؟ فاجبتها متباهيا سنة واحدة يا سيدتي . فصاح الاب - ان من يرالك يظنك قد ولدت وترعرت في هذه البلاد ولولا لونك الاسمر لما استظمت ان اعلم انك عربي . وقالت الفتاة : كم اتمنى ان يكون لسي لونه اذن لاصبحت فتنة في هذه

(٥١) ايوب (المصدر السابق) .

(٥٢) جورج ديهامل دفاع عن الادب صفحة ٢٢١ ، ٢٢٣ .